

الفصل الثالث

عصر عمر الخيام

(١)

المنهج السياسي

نشأ الخيام وقضى حياته في نيسابور وما جاورها من البلاد كبخارى ومرو وبلخ وبغداد، وعاصر الدولة السلجوقية وعرف من سلاطينها ألب أرسلان وملكشاه، وسمع بسقوط بلاد الإسلام في أيدي الصليبيين وتأسيسهم لإمارات صليبية في الرها وإنطاكية وأورشليم. وكان خلفاء العباسيين مجرد دُمى في أيدي سلاطين الولايات، وبعضهم استقل بالحكم تماماً كما في مصر الفاطميين ودولة الملتثمين. وكانت المكائد بين السلاطين، وبينهم وبين الخلافة على أشدها. وتدهورت أحوال الزراعة وكسدت التجارة بسبب الفتن والقتل، وغلّت الأسعار، وعمّ الشغب وثار العوام هنا وهناك، وأحرقوا المحال حتى كانت النيران أحياناً تأتي على المدن بأكملها. ولما تولى نظام الملك الوزارة كانت البلاد قد اختل نظامها، والدين تبدأت أحكامه، وخربت الممالك بين إقبال هذه الدولة وإدبار تلك، وأقفرت البلاد وأقوت، واستولت الأيدي العابثة وتقوت كما يقول ابن الأثير، وقامت النوائح على النواحي، والنواب على النوادي، ولم يكن لأحد من قبل الدولة السلجوقية إقطاع، فرأى السلاطين أن الأموال لا تُحصّل من البلاد إلا بتفريقها على الأجناد إقطاعيات، جعلوها لهم حاصلاً وارتفاعاً. وكان للسلاطين أنسباء يُدّلون بنسبهم ويسببهم، ويستطيّلون بأنهم نوى قرابة. ولما أراد نظام الملك وغيره التصدي لهذه الأحوال تأمر عليه أصحاب المصلحة وقد قرّر قرارهم على إسقاطه ومخالفته، وغيروا رأى أهل النفوذ عليه، وانتشرت الدسائس في البلاط، وانبرى الشعراء يمدحون هذا ويهجون ذلك بحسب الأحوال. وسنرى أهمية الخيام ككشاعر لم يشترك في عملية المدح والهجاء، وقد تطرق برباعياته إلى موضوعات ربما لم يسبقه إليها شاعر إسلامي آخر. ولعل أبو يعلى الهبارية كان خير المعبرين عن مثل هذه الأوضاع بقصيدته التي يقول فيها:

لو أن لي نفساً هربتُ * لِمَا أَلْقَى ولكن ليس لي نفس
مالي أقيم لدى زمانفة * شم القرون أنوفهم فطس

ولم يكن السلاجقة من العرب، وكانوا أتراكاً غلبوا على أكثر الأقطار الإسلامية ونفر منهم الفرس، وكانوا يعاقبون المتمردين على أحكامهم إما بالسّم أو بالسجن أو الخنق أو السمل، ولم ينج من ذلك السلاطين أنفسهم ولا نساؤهم، فبركيارق قتل عمه وغرقه وقتل ولده معه، وكانوا يكحلونهم ويحبسونهم، ولما جرؤ الوزير الكندرى أن يخطب إحدى النساء، وكان السلطان طغرل يريد لها لنفسه، أخصاه عقاباً له فى خوارزم، وعندما قبض عليه ألب أرسلان لتأييده لولاية أخيه سليمان بدلاً منه أمر بقتله فى مرو، ثم أخذوا جسده إلى موطنه كندر فدفنوه بها، ورأسه حملوها إلى نيسابور فدفنوها بها، وأما تحف الجمجمة فقدموها لألب أرسلان فى كرمان!

والكندرى هذا كان ملماً بالعربية وقدمه موفق النيسابورى إلى طغرل لهذا السبب فألحقه بخدمته وجعله كاتباً له، وكان له شعر جميل، كما كان متعصباً للشافعية، وأمر بلعن الرافضة والأشعرية فى المساجد، فلما جاء نظام الملك منعهم من لعن الأشعرية، وبذلك أرضى جملة من الفقهاء والصوفية منهم أبو المعالى الجوينى والإمام القشيرى مؤلف الرسالة.

وهذه الميقات الشنيعة من أمثال ميعة الكندرى كانت قدراً مقبوراً على الكثيرين، وحتى ألب أرسلان نفسه فإنه لما توجه إلى سمرقند وعبر النهر بعسكره الذين زادوا على مائتى ألف، أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يُعرف بيوسف الخوارزمى كان من الباطنية، فهجم على السلطان وركب على صدره وضربه بسكين كان فى خاصرته.

وبدا أن كل مافى عصر الخيام سىء للغاية، وحتى فى أقصى الغرب سقطت طليطلة فى أيدي الفرنجة وأخذوها من المسلمين، وكان لذلك وقع الصاعقة فى كل بلاد الإسلام. وكانما حل غضب الله بالناس، فمع هذه الأخبار التى تكسر القلب، وقعت زلازل كثيرة ومات خلقٌ عديد، وعمت الفتن فى كل مدينة تقريباً وبين مختلف الطوائف، وكانت الفتنة الكبرى ظهور الاسماعيلية، ولم تعرف بهم الدولة لخلوها من أصحاب الأخبار والبريد الذين يكتابونها بما فى الأقاليم والأدانى. وكان نظام الملك قد طلب من ألب أرسلان تعيين من يطالعهم بما يجرى فى البلاد، فرفض بدعوى أن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء للدولة وأعداء، فإذا نقل صاحب الخبر للدولة ماله غرض فيه فإنه يخرج به الصديق فى صورة العدو، والعدو فى صورة الصديق، فأسقط السلطان الفكرة، فلم يشعر إلا بظهور القوم أى الاسماعيلية، وقد استحكمت قواعدهم، واستوثقت معاقدهم، وأخافوا السبل، وأجالوا على الأكاير الأجل. وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يُقتل فيقتله غيلة، ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ

نفسه منهم حيلة، فصار رأى الناس فيهم فريقين، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة، فمن عاداهم خاف من قتلهم، ومن سالمهم نُسب إلى شركهم. وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين، فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك، ثم اتسع الخرق، وتفاقم الفتق. وقتلوا الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الملك بن نظام الملك، وكادوا يفتكون بالوزير نظام الملك بن أحمد بن نظام الملك. وقتلوا القاضي عبد الله بن علي الخطيب، والقاضي صاعد بن محمد بن عبد الرحمن أبي العلاء والشريف أبا الحسن، قالوا قتله كيماوية، ادّعى أنهم يعملون النقرة. وقتلوا أبا جعفر المشاط من شيوخ الشافعية وكان تلميذاً للخجندی، فلما نزل من الكرسي أتاه باطنى فقتله وقتلوا الخجندی بنفس الطريقة، وكان نظام الملك قد سمعه فأعجبه كلامه، وعرف محله من الفقه والعلم فعينه مدرساً بمدرسته النظامية، فنال جاهاً عريضاً، وكان النظام يتردد عليه ويؤزره، وقتلوا الأعمى أبا المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستاني وزير بركيارق، وكان راكباً متوجهاً إلى خدمة السلطان، فجاء شاب أشقر، وكان باطنياً، فاعتدى عليه بسكين، وجرحه عدة جراحات، ففرق أصحابه من حوله، ثم عادوا إليه، فجرح الشاب أقربهم إليه جراحات أثختته، وعاد إلى الوزير فلم يتركه إلا بأخر رمق.

وكانت البلد التي يثور أهلها تحاصر وتضرب بالمنجنيق ويؤسر أهلها ويصلبون على الأسوار. وكان يكفى أن يكون المرء سلجوقياً ليكون له الامتياز في كل شيء، وكان السلاجقة يأكلون الأموال ويقتطعون الأعمال. وكان العامة إزاء ما يحيق بهم يظهرن غضبهم بإغلاق الأسواق، ورفع المصاحف، وكانوا ينهبون ويحرقون ويكثرون من الكلام الشنيع والقتل، وكثيراً ما كانت أسواق الصاغة والسيارف والمخلطين والريحانيين تأتي عليها النيران، وقد يستمر الحريق من الظهر إلى العصر. وحتى الحجاج لم يكونوا يسلمون من التعدي، فكان العسكر يلحقون بقوافلهم وينهبونهم، ومن يعترض كان يقتل.

وقيل إنه في استيلاء الصليبيين على بيت المقدس قتلوا من المسلمين سبعين ألفاً، منهم كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف. وأخذ الصليبيون من عند الصخرة المشرقة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وذن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمئة درهم، وأخذوا تنوراً من الفضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى، وأخذوا من القناديل الصفار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه حصر، وفي ذلك قال أبو المظفر الأبيوردى قصيبته التي منها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم * فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمراحم
 وهر سلاح المرء دمع يفيضه * إذا الحرب شَبَّتْ نارها الصوارم
 فأيتها بنى الإسلام إن وراكم * وقائع يلحقن الذُرَى بالمناسم
 أتهوية في كل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميعة ناعم
 وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
 وإخوانكم بالشام يضحى مقلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
 تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
 وكم من دماء قد أبيحت ومن دمی * توارى حياءً حسنها بالمعاصم
 بحيث السيوف البيض محمرة الظبي * وسُمر العوالى داميات اللهازم
 وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تظل بها الولدان شيب القوادم
 وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم
 سلن بأیدی المشركين قواضباً * ستُفعد منهم فى الطلى والجمام
 يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
 أرى امتى لايشرعون إلى العدى * رماحهم والدين واهى الدعائم
 ويجتنبون النار خوفاً من الردى * ولايحسبون العار ضربة لازم
 أترضى صناديد الأعراب بالأذى * ويفضى على ذك كماء الأهاجم

إلى أن يقول:

فليتهم إذاً يزودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم
 دعوناكم والصرب ترنو ملحة * إيتنا بالحاظ النسور القشاعم
 تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الأباهم
 فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وكان الفرنجة يغيرون على بلاد الإسلام فيسوقون الماشية ويأسرون من يقع من المسلمين
 بأيديهم من الرجال والنساء والأطفال. وكذلك كانت الاسماعيلية (الباطنية) يغيرون على
 البلاد، ويكثرون القتل فى الأهالى، والنهب للأموال، والسبى للنساء. وكان السلاطين مشغولين
 عنهم بمؤامراتهم.

وسيطر المنجمون على السلاطين، وكان لكل سلطان منجم، فمثلاً قال المنجمون لسعد الدولة إنك تموت متردياً، فكان يحذر من ركوب الخيل، وقيل إن حذره لم ينفعه، فلما كان في حربه انهزم فتردى به فرسه فسقط ميتاً. ولعل الاعتقاد في هذه المسائل هو الذي حدا بالدكتور زكي مبارك إلى أن يصف عصر الخيام، أو بالأحرى عصر الغزالي ولا فرق بين الاثنين فهما من نفس العصر - أن يصفه بالسذاجة، غير أن المرحوم أحمد الصراف قد أخذ عليه هذا الوصف وقال عبارة أسقطته بشناعة. قال: وإن أعجب فعجبي من الأساتذة الفطاحل الذين منحوا هذا الأديب (يقصد الدكتور زكي مبارك) لقب الدكتوراه من غير مناقشة في هذه الوثيقة (يقصد تصديق الناس في عصر الخيام عن سذاجة أن من يدرس على الإمام الموفق النيسابوري يبلغ الرقيع من المناصب)... وإنى لأرجع أمثال هذه الانتقادات غير العلمية، وما أكثرها كلما اختص الأمر بمصرى، إلى الغيرة والحسد للمصريين. وإلا فإذا كان الصراف رحمة الله عليه يتباهى بأنه أفضل من الدكاترة زكي مبارك فليقل لى لماذا أخطأ هذا الخطأ الفظيع ونكر في معرض حديثه عن الغزالي ص ٨٠ أن الخيام عاصر الغزالي وصادفه في بغداد، وجرى بين الاثنين حوار علمي حول القرآن... والغزالي الذي جرى الحوار بينه وبين الخيام في هذه الواقعة بالذات هو إمام القرآنيين أبو الحسن الغزالي وليس الإمام الغزالي، وكان ذلك في مجلس الوزير عبد الرزاق، وكانا يتكلمان في اختلاف القرآن على إحدى الآيات!! وأما الواقعة التي ضمت الإمام الغزالي والخيام فكانت في مجلس آخر، وفيه سأله الإمام الغزالي عن تعيين جزء من أجزاء الفلك للقبطية. ثم إن الذي يقوله الدكتور مبارك هو حكم على العصر - يقول العصر ساذج - والحكم ذاتي، وهو حر أن يرى في العصر ما يشاء فهذا هو انطباعه عنه وأما خطأ الصراف فهو غفلة موضوعية ظن معها أن القرآن أبا الحسن الغزالي هو نفسه الإمام حامد الغزالي - وذلك أمر شنيع!!!

وكان التطاحن على أشده بين السنة والشيعة. وكثر الجدى، وقد أصيب به السلطان سنجر وهو بعد طفل وعالجه الخيام. وكثيراً ما كان الجنود ينضمون للأهالي ضد السلاطين والوزراء والحاشية فيهاجمون القصور والدور الحسان ويخربونها. وكثيراً ما كانت الفتن تتور بنيسابور موطن الخيام، وتحاصر بالشهور، ويقتل الأهالي ويسقط الكثير من القتلى. وكان الغلاء بها يستمر أحياناً لسنوات، وقيل إنه في زمن الخيام كان يباع كُر الحنطة في سنوات

بمبلغ سبعين ديناراً، وربما زاد، وكانت تحدث مجاعات ويموت الناس بالمئات حتى كانوا يحملون على المحفة الواحدة ست جثث، وكانت الأدوية والعقاقير تشح أو تكون معدومة. هذا إذن كان المناخ السياسي الذي عاش فيه عمر الخيام، وكان عاملاً من عوامل تزدهر واعتزاله وميله إلى التشاؤم، وأن يكتب الرباعيات وفيها كل هذا الكم الهائل من الحزن والشجن والأسى والهَم والجزع والقلق. يقول:

دارنا صاحِ خيمَةً في قفار
ذات بابين من دجى ونهار
ومقيل لكل غادرٍ وسار
هاك فانظر آثارَ عزِّ مئات
مثل جمشيدِ بعضِ هذى الرفات
وارنُ وانظر أطلالَ أربعِ بهرا -
مَ وكَم من جاسوا وجنّوا ذهاباً

قصر بهرام مريعُ السلطان
بات ماوى الأرام والغزلان
ومراحُ الضرغام والسرحان
والمليك الصياد صيدٍ وأردي
ومن العرشِ حطُّ حطًّا للحدِّ
بقر الوحشِ فوقه رائحات
غاديات تجتاحه أسراباً

عمر الخيام والوزير نظام الملك

نظام الملك اسمه حسن الطوسي، أو الحسن بن علي بن إسحق، وكنيته أبو علي، وعن صلته بعمر الخيام تؤكد قصة صداقته والخيام وحسن الصباح المراجع من أمثال جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله (٧١٠هـ) وتذكرة الشعراء لبولت شاه (٨٩٢هـ) وروضة الصفا لميرخند (٩٠٢هـ)، والكتب الثلاثة تنقل عما تسميه وصية نظام الملك والتي فيها يحكى نبذة عن حياته، فإن أباه قد سمع بعلم الإمام الموفق النيسابوري، وأن من يتلقى عليه علوم العربية لابد أن ينبغ فيها ويبلغ الغاية وينساق إليه العز والجاه، ولذلك فقد وجهه إلى نيسابور ليقراً على ذلك النابغة الجليل. وفي أول جلوسه لحلقة درس التقى تلميذين حديثي عهد بالقراءة على أستاذهم الموفق، وكانا عمر الخيام وحسن الصباح. ويحكى نظام الملك أنهما كانا في غاية الفطنة والنكاء، فأنس كل منهم بالآخر ونمت بينهم علاقة صداقة كالتى تنشأ بين الصغار دائماً عندما يتزاملون في الدراسة، فإذا قام الإمام من حلقة درس اجتمعوا عند نظام الملك ليذكروا ما تلقوه.

ويقول نظام الملك عن حسن الصباح إنه كان يكذب إذ يرجع أصوله إلى حمير من آل الصباح، ولكن الناس في خراسان وطوس بالأخص يؤكفون أنه من عامة الناس، وأن أباه شديد التنسك والورع والتكشف ولكنه متهم في عقيدته. وكان الحسن ينكر ولكنه أحياناً ينسى نفسه ويتلفظ بما يقضى بكفره، وكان شديد النقد والتحامل على أهل السنة، فإذا واجهه الإمام الموفق بما قال أبدى البراعة، وتنصل من التهمة مخافة أن يطرده الإمام من الحلقة. وجاء الحسن زميليه يوماً واقترح أن يتعاهدا على أن من يحقق لنفسه مستقبلاً ناجحاً فلا يقصر في حق صاحبيه وليقتسم معهما ما حصله من خير. وتعاهدا، وافترقوا، ومضت السنون. ويقول نظام الملك إنه سافر طلباً للرزق، وتقلب به الأحوال إلى أن التحق بخدمة السلطان وارتقى إلى الوزارة، فسمع به صاحبا عمر الخيام وحسن الصباح، فقدماً إليه يستقضيان العهد. ولما عرض نظام الملك على الخيام أن يوليه إمارة أو يلحقه بخدمة السلطان، بالنظر إلى علمه وأن مثله ينبغى الانتفاع به، أبى وأبدى عزوقاً عن السياسة والوظائف العامة، وأثر أن يخصه النظام براتب سنوى يكفيه ويغنيه عن الناس ليتفرغ لمواصلة دراسة علوم الحكمة وخاصة علم الهيئة فيفيد منه الناس. وتمضى القصة أن حسن

الصباح طلب الاشتغال بالحكم، وظن النظام أنه يطلب إمارة أحد الأقاليم فخبره بين الرى وهمذان، ولكنه رفض العرضين وطلب أن يشركه معه فى الوزارة، فاكتفى الوزير أن يَبوَاه معه مكاناً علياً فى القصر، فعمل الحسن على أن يتصل بدماء السلطان وأن يجتذبهم إليه، فكان كثير الاجتماع بهم والسمر معهم وملاعبتهم النرد والشطرنج حتى ارتقى فى الوظيفة وصار حاجباً للسلطان. وكان الصباح من الشيعة الاسماعيلية فكان يكره النظام لهذا السبب لأنه كان سنياً منتصراً لسنيته، وكانت تلك الكراهية دافعاً له أن يدس للنظام عند السلطان حتى اتهمه هذا الأخير بتبديد أموال الدولة وإساءة التصرف فيها.

وتقول القصة إن هذه الفرية انكشفت أمرها فهرب الصباح إلى أنزيبيجان ومنها إلى الشام، ثم نزع إلى مصر سنة ٤٧١هـ، وفيها درس أصول الدعوة، وكان أبو داود داعى الدعاة قد استقبله وقدمه إلى المستنصر بالله الفاطمى فقرّبه منه، ثم رجع إلى فارس ينادى بالخلافة لنزار بن المستنصر، ويطوف بكرمان وطبرستان يدعو له، ولما خاب رجائه قصد القلعة المشهورة باسم وكر العقاب فى قوهستان، وظل بالقرب منها يسكن إحدى المغارات ويبدى من صنوف التعبد ماجعله موضع رضا من حاكمها على المهدي، فدعاه إلى النزول بها ولكنه رفض بدعوى أنه لا يجب أن يكون لأحد فضل عليه، وطلب منه أن يبيعه ولو أشبار من الأرض يقيم فيها ويتعبد عليها فى ملكه، فباعه ذلك، وأقام الصباح فى القلعة يملك بأهلها ويخدع حاكمها حتى استطاع أن يثيرهم ضده، ثم أرسل إليه يقول: هذه القلعة ملكى وقد بعته لى فأخرج منها- ولم يكن فى استطاعة الحاكم إلا أن يرضخ له ويخرج من القلعة بعد أن انضم رجاله إلى الصباح.

وتختلف الرواية فيما رتب نظام الملك لعمر الخيام من معاش، فذكر فضل الله أنه عشرة آلاف دينار سنوياً، وقال ميرخند أنه ١٢٠٠ دينار، وقال بولت شاه إنه ١٢٠٠ مثقال من الذهب من خراج نيسابور.

هذه هى القصة المشهورة التى ينكرها البعض بدعوى أنها جميعها ملفقة، لأن نظام الملك لم يكن من سن الخيام ولا الصباح، وأن النظام كان من مواليد ٤٠٨هـ وتوفى غيلة سنة ٤٨٥هـ، والمعروف أن الخيام توفى عام ٥١٧هـ أو نحوها، وكذلك حسن الصباح، فلو كانا من سن النظام إذن لكان عمرهما عند الوفاة فوق المائة وهذا كثير.

وأقول: إنه ليس بكثير أن يعيش النظام أو الخيام بعد المائة، فهذا الكاتب المعاصر لهما

أبو علي محمد بن سعد بن إبراهيم بن النبهان قد تجاوز المائة عندما توفي وكان وحيد عصره في علم الفرائض والحساب.

وأيضاً فإنه ليس هناك ما يجزم بوفاة الخيام سنة ٥١٧ هـ، ولا بأن ولادة النظام كانت في سنة ٤٠٨ هـ. ورغم أن المستشرق إدوارد جرانفيل براون في كتابه الجامع تاريخ الأدب الإيراني يقول بوفاة الخيام احتمالاً سنة ٥١٧ هـ ويبنى هذا الترجيح على أساس أن المؤرخ العروضي قد ذكر أن الخيام كان قد مات منذ بضع سنوات قبل سنة ٥٢٠ هـ، وأن البضع هو ١٣ سنة، إلا أنني في الحقيقة لا أفهم هذا التفسير للبضع الذي سايره عليه الدكتور الثورابي مترجم الكتاب، فالبضع في اللغة العربية من ٢ إلى ٩، فتكون الوفاة كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق احتمالاً بين ٥٢١ و ٥٢٧ هـ. فهل يأتري البضع في الفارسية هو ٩١٣

ويورد براون اقتراحاً يوائم به بين تضارب التواريخ في الواقع والقصة عند الأصحاب الثلاثة: النظام والخيام والصبح، وهو أن الوزير المعنى في القصة لم يكن النظام بل هو أنوشيروان بن خالد الذي استوزره السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه الذي حكم في المدة بين ٥١١ و ٥٢٦ هـ، وخاصة أن هذا الوزير نفسه يحكى أنه قد سبق له أن عرف بعض رؤساء الباطنية في شبابه ودرس مع نفر منهم، وحدده أكثر فقال إنه كان من الرى وكان كثير الأسفار محباً للإنشاء والكتابة، وهذه الصفات تنطبق على الحسن بن الصباح، فإذا عرفنا أن أنوشيروان نفسه من الرى من مواليد ٤٥٩ هـ لأدركنا للتو أنه فعلاً الوزير المعنى لأنه: يتقارب في السن مع الصباح، ومن بلده، ويحتمل لذلك أنه درس معه، ثم كانت وفاته سنة ٥٣٢ هـ، وكان سنة ٥١٧ هـ وزيراً للسلطان محمود ورافقه في رحلته إلى بغداد، وعانى كثيراً من المؤامرات من رجال القصر.

ومع كل ما سبق والأدلة التي يقدمها براون فليست أرى أن نظريته سليمة، وذلك أن تحديد وفاة الخيام بسنة ٥١٧ هـ افتراضى بحث ولا يوجد ما يثبته، وهناك من يرى أنه توفي سنة ٥١٥ هـ، أو سنة ٥٠٩ هـ، أى قبل أن يتولى أنوشيروان الوزارة، فقد نكر عماد الدين الأصفهاني في كتابه « تاريخ دولة سلجوق » ضمن باب « ذكر جلوس أنوشيروان بن خالد في نيابة الوزارة » وباب « ذكر وزارة شرف الدين أبي نصر أنوشيروان بن خالد » أن أنوشيروان يقول عن نفسه إنه ظل بالوزارة سنة وأشهرأ لا يقدر على الخطاب في مصلحة، ولا على التنفس بفائدة مترجمة، وقد اتفق عليه صاحباً يعينه ويساره الشهاب أسعد الطفراني

والصفي أبو القاسم المستوفى والحاجب الكبير أرغان وامرأته قهرمانة السلطان»، ثم يقول إنه دخل بغداد سنة ٥٢٠ هـ وليس سنة ٥١٧ هـ، وأنه لم يستطع أن يتقرب إلى السلطان ويبصره بما يحاك ضده «إلا في أواخر ذى الحجة سنة ٥٢٠ أو أوائل المحرم سنة ٥٢١ هـ».

ما الرأي إذن في كل هذا التضارب في التواريخ، وأيها نصدق؟ ثم إن المدقق في تاريخ حياة الوزيرين «نظام الملك وأنوشيروان» لابد أن ينتهي إلى ترجيح أن الوزير المعنى هو النظام على الحقيقة وليس أنوشيروان الافتراضي.

ولا يرفض براون قصة الأصدقاء الثلاثة، ولكنه يثبتها مع هذا التغيير الذي يقترحه، ونحن نؤيد القصة بحذافيرها دون تغيير، وذلك للأسباب التالية:

١ - أنوشيروان شخصية ضعيفة ومهزوزة ويعترف هو نفسه بأنه كان عرضة لمؤامرات تحاك ضده لم يستطع حيالها شيئاً إلا بعد سنة ٥٢٠ هـ، أي بعد وفاة الخيام المفترضة.

٢ - ما قيل عن نظام الملك يقضى روحاً ومبنى أنه الوزير المعنى في القصة بكل التفاصيل التي قيلت عنه، فهو من بيت عز من دهاقين طوس، وماتت أمه وهو طفل، وفقد أبوه ماله، واضطر أن يبحث له عن مرضعات يرضعنه حسبه، وأصوله العرقية وتَقوى أبيه ورضاعته عن يُمّ جعل ذلك شخصيته فيها حنوً غريب للفقراء والمحتاجين حتى إنه لتَرَوَى عنه الأعاجيب. وكان تحصيل العلم تسليته في يُمّته فنشأ محباً أن يتيح كل الفرص لغيره أن يتعلم. والعلم هو الذي رفعه من الحضيض ومن وظيفة كاتب صغير إلى مرتبة الوزير الأول، وظل بالوزارة ثلاثين سنة، وكان لفرط إخلاصه مطلق اليد في الإدارة، وأنجب ١٢ ولداً صاروا جميعهم وزراء. وكان شديد التدين، جواداً، عادلاً، طليماً، ويعتبر أهم شخصية في إيران جميعها في عصره. وكان متضللاً في الحكمة وله كتاب سياست نامه أي كتاب السياسة، ويعتبر من أهم الكتب في موضوعه، يحكى فيه عن خبرته في الحكم وإدارة الدولة كما طلب منه ملكشاه. وأسلوبه فيه بسيط وأفكاره واضحة. والكتاب برمته يقضى بالتزامه الجماعة والسنة، وأنه ضد الشيعة والقرامطة والاسماعيلية والباطنية، ويرد كل هذه الفرق إلى المزدكية، ويعد مزدك عاودت الظهور على يد الغرمية ثم سنباد المجوسى، ثم عبد الله بن ميمون القدّاح، والأخير هو مؤسس الاسماعيلية وينتسب إليه العلويون والفاطميون.

ويقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ إن نظام الملك كان جم التواضع، ويحكى أنه كان يلتقى الإمام الجوينى والإمام القشيري فينهض للسلام ثم يلزم مقعده، فإذا التقى

الإمام الفارمذى فإنه يقوم له ويجلسه مكانه ويجلس بين يديه، وذكر أن الأولين كانا يثنيان عليه فيفتخر، وأما الثالث فكان يذكره بعبويته فتنكسر نفسه ويرجع عن كثير مما هو فيه. وكانت أمنيته فى ابتدائه أن يمتلك قرية باكملها يكون ريعها له، ومسجداً ينفرد فيه للعبادة، ثم ترقّت أمنيته فصار يرغب فى قطعة أرض - مجرد قطعة - تكفيه ليتقوّت منها، ومسجد يعبد الله فيه، ثم ترقّى أكثر فصارت أمنيته رغيف خبز ومسجداً يجد فيه لنفسه مكاناً للصلاة والعبادة! هذا هو نظام الملك، فأيهما نصدق أنه المعنى بالقصة؟ هل هو أنوشيروان أم النظام الذى كل مافى القصة ينطبق عليه وعلى خصاله؟ ولاعجب أن يكون النظام صديق الخيام وأثيره، وأن يختصه بمعاش، وأن يفرغه لوضع الزيج الجلالى الذى أتمّه على خير وجه حتى أشاد به المحدثون قبل القدماء والشبيهه يعميل إلى شبيهه، والنظام الذى يتمنى مجرد رغيف خبز وسجادة للصلاة، يقترب كثيراً فى أمنيته من الخيام الذى يتمنى نصف رغيف فقط يومياً ومكاناً يأوى إليه، ولا يكون مخنوماً ولا خادماً لأحد، فهذا هو أقصى الهناء عنده الذى يحمد الله عليه كل الحمد.

وشخصية نظام الملك شخصية درامية للغاية سواء فى بدايتها (الفقر بعد يسار، واليتم، والرضاعة من المرضعات حسية، والاضطهاد) أو فى نهايتها حيث كان اغتياله بسكين من صبى من الباطنية. والغريب أن ولدين له هما فخر الملك ومؤيد الملك قُتلا غيلةً أيضاً من الباطنية. وكان نظام الملك محبوباً من الجميع... الفقراء والعلماء والدهماء والملوك. وقيل فى أيامه نشأ للناس أولاد نجباء وتوفّر الآباء على تهذيبهم ليحضرهم إلى مجلسه فإنه كان يرشح كل واحد للمنصب الذى يصلح له، ويوجهه لنوع الدراسة التى تفيده فى عمله بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل. ومنّ وجده فى بلدةٍ قد تميّز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ووقف عليه وقفاً، وجعل فيها دار كتب. وهذه الأوصاف التى يوردها ابن الأثير عنه تتفق مع القصة تماماً ومع أفضاله الكثيرة على الخيام وإيثاره له بالخير وقوله له إنه قد رأى فيه التفوق فأراد أن يفرّغه لما تميّز فيه وهو علم الهيئة أى الفلك. ويقول ابن الأثير وكأنما هذه المحامد فيه هى التى عناه بها أبو الضياء الحمصى بقوله:

وما خُكِت كَفَاكُ إلا لأربع * وما فى عباد الله مثلك ثان
بتجريد هندی وإسداء نائل * وتقبييل أفواه وأخذ عنان

وظهر في تدبيره في سياسة الملك ما قاله سليمان بن عبد الملك: عجباً أمر هؤلاء الأعاجم! ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة (أى لم يحتاجوا للعرب)، وملكنا مائة سنة فلم نستغن عنهم ساعة!!

وفي عهد نظام الملك نشأت طبقات من الكتّاب الجياد، وتولوا المراتب. ولم يزل باب مجمع الفضلاء وملجأ العلماء، تماما كما فعل مع الخيام. وكان بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرّس فيه صلاحية الولاية ولأه، ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتّب ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكّره، وربما سيّره إلى إقليم خالٍ من العلم ليُجيب به عاطله ويؤدى حقه ويميت باطله.

ولكل ما سبق نُؤيد بشدة أن يكون الوزير المعنى في قصة الأصدقاء الثلاثة - النظام والخيام والصبحاح - هو نظام الملك وليس أنوشيروان، حتى وإن تضاربت التواريخ (رغم أن نسبتها إلى أنوشيروان لم يرفع هذا التضارب كما سبق أن نوهنا)، فروح القصة ومبناها كلاهما ينسجم مع سيرة وحياء نظام الملك وليس غيره. وكان نظام الملك، كما هو ثابت، هو الذى جمع أهل العلم من الفلكيين الثقات، ومنهم الخيام، ليضعوا الزيج الجلالى، وهو الذى فرّغهم لهذا العمل، وخصّمهم بالمال اللازم، وهياً لهم كل الأدوات وأشاد بإنجاز الخيام حتى أن السلطان ملكشاه قرّبهُ وجعله من جلسائه.

(٣)

المناخ الثقافي

كانت نيسابور في عصر الخيام ملتقى الثقافات والحضارات، وسكانها أخلاط من مختلف الجنسيات والألوان والنحل والديانات، وتنتشر فيها دكاكين الكتّبية تبيع المصنفات المترجمة والمؤلفة، والأسواق تحفل بالبضائع من أطراف الدنيا، والمشترون والبائعون يتكلمون لهجات معروفة أو مجهولة، والناس بأزياء عجيبة وألوان من الثياب غريبة، وقد وفدوا من كل صوب بعيد. وفيها الحانات على المشارف يديرها المجوس أو اليهود، ويروج لها البغايا والقيان والصادحات والضاربات بالدفوف والعارفات على العود من كل صنف وملة.

وكان المناخ الثقافي العام كوزموبوليتاني، أى مناخ عالمي، فالسلطين أترك يرطنون بالتركية، والشعب فارسي يلحن بالفارسية، والديانة عربية لسانها عربي، والجنود من شتى بقاع الإسلام وأنحاء الإمبراطورية، والقواد من الممالك. وفي عهد السلاجقة قيض لهذه الدولة وزراء مستنيرين كان أبرزهم نظام الملك، أطلق السلطين يده فى الإدارة، وكان من أهل الأدب والعلم فأنشأ المدارس النظامية وشرع نوابه فى تعميمها ابتداء من سنة ٤٥٩هـ. ولما استتمت أول مدرسة كبرى منها وانتظمت أحوالها، سكنها من حملة الشريعة رجالها، وأراد بها مؤسسها أن تكون قلعة للسنة تنافس المدارس الفاطمية فى مصر. وكان الفاطميون قد فاجأوا العالم الإسلامى بإنشاء دار الحكمة سنة ٢٩٥هـ لتدريس المذهب الاسماعيلى، وزودوا الدار بمكتبة أطلقوا عليها دار العلم حوت الآلاف من الكتب فى الفقه واللغة والكيمياء والطب وسائر العلوم والآداب، وحولوا الأزهر للتدريس سنة ٢٦٥هـ وصيروه مركزا لمجالس الحكمة. وفى عهد نظام الملك صارت المدارس النظامية نموذجاً فريداً لنور التعليم الإسلامى السننى، وألحقت بها المكتبات، وأجرى على علمائها الأرزاق. ووفر نظام الملك لأرباب العلم حقوقاً لا تؤخر، ورسومها لا تُغيّر، وميراثاً لهم يأخذونه بقدر الفرائض، ويأمنون بها من النوائب والعوارض. وقيل إن ما كان ينفق سنويا فى عهد السلاجقة على طلبة العلم بلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة. وكان من علماء المدارس النظامية أبو طاهر عبد الرحمن بن محمد بن علك، وأبو عبد الله الطبرى، وأبو سعد عبد الرحمن بن المأمون المتولى، وأبو القاسم البكرى، وكلهم أساطين من أساطين العلم ودهاقين المعرفة. ومنهم الإمام الغزالى وأبو إسحق الشيرازى. ولما توفى الشيرازى كاد نظام الملك يغلق المدرسة النظامية سنة حزنأ عليه، وصلّى عليه الخليفة نفسه وبلغ من تكريم الناس للشيرازى ولأهل العلم فى حياته أنه فى طريقه إلى لقاء ملكشاه ونظام الملك كان كلما مرّ بمدينة من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم، يتمسحون بركابه، ويأخذون تراب بقلته للبركة. وكان الفقهاء يدعونه كل منهم أن يدخل بيته. ولقيه أصحاب الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته، وخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهام فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة والطواء وغيرهم. وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداسات لطافاً تصلح لأرجل الأطفال، ونثروها فكانت تسقط على روس الناس، وكان الشيخ يتعجب ويتندر مع أصحابه من بعد، ويسألهم كم مداس وقع على روسكم! وخرج إليه مشايخ الصوفية، وكانوا يقبلون يده فيركع ويقبل أرجل المشهورين منهم من نوى الصلاح والفضل.

ومن الشخصيات الصوفية لهذا العصر القشيري صاحب الرسالة، وقد تولى ابنه أبو نصر التدريس في النظامية وفي رباط الصوفية، وأبدى في تعليمه شعار الأشعرية، وزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنزهة ويبطل شبه المجسمة، فثارت الفتنة بين العامة، وقصدت الحنابلة سوق المدرسة، وقتلوا جماعة، وأظهروا شناعة، وورد مؤيد الملك بن نظام الملك في عسكره فلم يطلق دعفاً، ولم يستطع منعاً، ونسب نظام الملك إلى بنى جهير تلك الفتنة.

ومن الشخصيات الصوفية أبو الحسن البسطامي وأبو نصر بن أبي عبد الله بن جرّدة، وعبد الرازق الصوفي. وكان من أهل الأدب أبو الفوارس الحسن بن علي الخازن وله الشعر:

عنت الدنيا لطالبها * واستراح الزاهد الفطن
 عرف الدنيا فلم يرها * وسواه حظه الفتن
 كل ملك نال زخرفها * حظه مما حوى كفن
 يقتنى مالاً ويتركه * في كلا الحالين مفتن
 أملى كوني على ثقة * من لقاء الله مرتين
 أكره الدنيا وكيف بها * والذي تسخو به وسن
 لم تدم قبلي على أحد * فلماذا الهم والحزن؟

وكأنه قد تَمَّصَّ روح الخيام الذي يقول:

زخارف الدنيا أساس الألم * وطالب الدنيا ندیم القدم
 فكن خلى البال من أمرها * فكل ما فيها شقاء وهمّ
 وأسعد الخلق قليل الفضول * من يهجر الناس ويرضى القليل
 من يحسب المال أحب المني * ويذرع الأرض يريد الغنى
 يفارق الدنيا ولم يختبر * في كده أحوال هذى الدنى

ومن أشخاص هذه الفترة الفقيه عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول. ومن مدرسي النظامية أردشير بن منصور أبو الحسين الواعظ العبّادي، وكان مجلسه من المستمعين يشغل مساحة من الأرض، طولها أحياناً ١٧٥ ذراعاً، وعرضها ١٢٠ ذراعاً، وكانوا يزدحمون ازدحاما كثيراً، وكان النساء أكثر من ذلك. ولمّا نهى عن أن يتعامل الناس بالقرضاة بدعوى أنها ربا، منعه الناس من التدريس وأخرجوه من البلد.

ومن الحوادث الثقافية ذات الدلالة في موضوعنا أن عبد الباقي بن محمد الحسين بن ناقيا الشاعر، كان يتهم بأنه يطعن الشرائع كالخيام، فلما مات كانت يده مقبوضة فلم يطق الغاسل فتحها، فبعد جهد فُتحت فإذا فيها مكتوب:

نزلت بجار لا يخيب خفيفه * أرجى نجاتي من عذاب جهنم
وإني على خوفاي من الله واثق * بإنعامه والله أكرم منعم
وما أشبهه بالخيام إذ يقول:

قيل لدى الحشر يكون الحساب * فيغضب الله الشديد العقاب
وما انطوى الرحمن إلا على * إنالة الخير ومنع الثواب

ولعل الحركة الباطنية من الحركات الكبرى التي شغلت أفكار الناس وكانت من التيارات الثقافية التي صنعت عصر الخيام، وكان قد اجتمع من الباطنية ١٨ رجلاً، صلوا صلاة العيد، وطقن الناس لما يدعون إليه فحبسهم ثم أطلقهم. ثم إنهم دعوا مؤذنا فلم يجيبهم إلى دعوتهم فخافوا أن يفشى سرهم فقتلوه، فهو أول قتل لهم، وبلغ خبره نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله، فوُقت التهمة على نجار اسمه «طاهر» فقتل ومثّل به، فهو أول قتل منهم. وكان والده واعظاً، وقصد البصرة فولى القضاء، ثم توجه في رسالة إلى كرمان، فقتله العامة في الفتنة التي جرت، وذكروا أنه باطنى.

ثم إن الباطنية قتلت نظام الملك، وهي أول قتل مشهورة كانت لهم، وقالوا «قتل نجاراً فقتلناه به».

وممن قتلوه من الشخصيات ذات الوزن العلمى والثقافى أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى بنيسابور، وكان من خطبائها. واتهم العامة أبا البركات الثعلبى الباطنى بأنه هو الذى سعى فى قتله فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.

وكان السبب يتناول المذاهب على المناير. وفى هذا العصر كثر الإلحاد والفظ فى الدين، وانتشر التأليف على طريقة اليونان والشروح على كتبهم، وقيل فى الفلسفة إنها بدعة مستوردة، وأتهم الفلاسفة فى دينهم وأمتحنوا فى إراداتهم. وامتاز العصر بالمؤلفات الكثيرة التى ترد على أهل الفلسفة، وتعرض الحكومات عليهم، وتوعز إلى العامة بمحاربتهم

وكانت هناك اتهامات فكرية متبادلة، وحركة كبرى من النقل من اليونانية بخاصة، وصار من المؤلف أن المفكرين الكبار يقرأون بأكثر من لغة، وتجتمع فيهم روافد متعددة من

الحضارات والثقافات فلا تدرى الأصول الحقيقية لثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية من كثرة الموارد عليهم.

ولسوف نرى فى رباعيات الخيام من كل ذلك الكثير، كما سنرى كيف تأدى به تضارب المذاهب وتطاحنها وإلغاء بعضها لبعض أن زهد فيها جميعاً وتشكك فى العقل نفسه. يقول:

تزداد هيرة عقلى كل داجية
والدمع حولى مثل الدرّ مسكوب
كم سرتُ طفلاً لتحصيل العلوم وكَمْ
أصبحتُ بعد بتدريسى لها طرياً
فاسمعْ ختامَ حديثي ما بلغتْ سوى
أنى بُدئتُ تراباً ثم عدتْ هَبْياً!!
